

نحو فهم واع للتراث

أ. بن عودة عطاطفة

المركز الجامعي غليزان

كان الصراع الأدبي والفكري الذي ترعرع في ظلّ أحضان حركات التجديد الشعري منذ مطلع هذا القرن، والذي نما وتطوّر بتطور هذا الصراع وهذه الحركات، يعدّ مظهراً من مظاهر الصراع الحضاري الذي عاشته الذهنية العربية ومؤشراً لبداية المرحلة انتقال جسيم واجهها المثقف العربي، اتسمت بالصراع والتناقض في ظروف ثقافية واجتماعية تميزت بالتغيّر والتطور. حيث انعكست مؤثراتها على حركات التجديد، لكونها نتيجة التغير الذي مسّ الجوهر البنية الثقافية والاجتماعية، وتصعباً لموقف هذه الحركات من كل القضايا المطروحة على ساحة الصراع، ومما زاد من حدة هذا الصراع أنه جاء في جوّ من الغزو والتسلط الناتج عن لحظة اللقاء بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية، إذ وضع المثقف العربي في موقف تميّز بالتطلع الفكر إلى معرفة وثورة الوجدان على القهر⁽¹⁾ وفي سياق التحولات والمتغيرات التي حدثت في المجتمع ولاسيما ما مسّ منها الساحة الأدبية وعلى وجه التحديد الشعر، ظهرت قضية التراث والمعاصرة والأصالة والحدثة قضايا ملحة استوجب على الشاعر والمثقف حل إشكالياتها ورسم معالم مفاهيمها، ووضعها في إطارها التاريخي والجمالي والفني مع التزام الحيطة والحذر. ففي ظل تبلور الحس الوجداني وتطور رؤاه الفنية والجمالية أمكننا تفسير هذه القضايا في إطارها التجديدي والعصري في الوقت الذي تبدوا فيه حقيقة التجديد وقعا أدبياً وفكرياً، أهم مميّزاته وسماته (التحرر والثورة) على القديم. فإذا اعتبرنا أن التجديد يحمل في كيانهِ (الجديد) فهل أمكننا عد هذا الجديد نقيضاً للقديم، ومن ثم موقفاً من كل ما له صلة به، وعلى رأس القائمة (قضية التراث)، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مدة اللقاء الحضاري والآثار التي نتجت عنه فسرت انطلاقاً من مبادئ ومفاهيم كل مدرسة، ووفق فلسفات نقدية وجمالية معينة خاصة بها، وضعت قضايا الفكر الأدب في دائرة صراع الأضداد، ونظرت إليها برؤى مختلفة قد تكون ميتافيزيقية، ولم تنظر إليها نظرة جدلية⁽²⁾. مع أنه من

الصعوبة بمكان تفسير قضايا التراث والمعاصرة والحداثة، بعيداً عن هذا الصراع وهذه لحضور حضاري، ضمن تجربة إبداعية فنية، وقد تفسر على أنها انبثاق لرؤية جديدة تحاول التوفيق بين عناصر التراث وحاجيات العصر ومتطلباته ضمن إشكالية فلسفية جمالية؟ لا ندعو الحقيقة أن قلنا أن حقيقة التراث تشكل الخلفية التاريخية والحضارية لأمة من الاسم، وحضوراً حضارياً، وهو بحسه المادي والمعنوي يعد امتداداً إنسانياً لحضارة البشرية⁽³⁾ في ديمومتها وصيرورتها: "... الصيرورة هي روح ومضمون التطور الإنساني.."⁽⁴⁾.

ويخيل إلينا أن وضع مفهوم لحقيقة التراث - كونه قضية وموقفاً - في سياق تعامل الشاعر معه، ونظراته الحقيقية إليه يعدُّ الحجر الأساس في تكوين رؤيته وتشكيل موقفه منه، على أن نظر الشاعر إلى طبيعة التراث، ظلت مرهونة بتعامله معه ضمن مواقف متباينة، متعاطفة معه تارة، وناصبة له العداء تارة أخرى: "لقد أكدت التجربة الفنية أن أولى ضرورات الإبداع الحقيقي ونزع ما يحيط بعبارة التراث من الغموض من خلال تأسيس منهج يتناول هذا المفهوم على ضوء منجزات العصر والربط بين متغيرات النظر إلى التراث إلى المجتمع ربطاً جديداً عميقاً ومحكوماً برؤية موضوعية لحركة التاريخ..."⁽⁵⁾ بيد أن تأسيس المنهج يحدّد مفهوم التراث مرهون بتوفر شروط موضوعية أساسها التعامل مع التراث بعيداً عن العواطف والنظرة الذاتية المحكومة في بعض الأحيان بنظرة تقديسية، مع مراعاة ظروف نشأة هذا المنهج، حيث أن جيل ما بين الحربين عاش ظروفاً سياسية وإجتماعية وثقافية إسمّت بالحساسية اتجاه التراث، ولاسيما أنه عاصر الإرهابيات الأولى لحركة التجديد الشعري، وظهور الوعي الرومانسي الوجداني الذاتي، إذ افترقت تجاربه الفنية والإبداعية إلى فلسفة جمالية تستند إليها، مع غموض ملامحها وسماتها في وقت لا زمت شعره نزعة الرومانسية إلى جانب النزعة الكلاسيكية⁽⁶⁾، مع أن بعض هذه التجارب حاولت النظر إلى التراث نظرة تعاطف: "ولكن التعاطف في هذه الحركة مع التراث الشعري القديم، رغم ما حققته من الترابط بين الماضي والحاضر قد نظرت إلى هذا التراث من زاوية واحدة. ولتحقيق هدف واحد، نظرت إليه من زاوية فنية صرف، فوجدت فيه النموذج الأعلى في التعبير الذي ينبغي أن يحتذى وحقت بذلك رقياً في مستوى التعبير الشعري بالقياس إلى المستويات السابقة وكانت النتيجة هي نوبان الشاعر الحديث في إطار الشعر القديم"⁽⁷⁾. على أننا لا نقلل من حصيلة

هذا الترابط وهذا الذوبان وما تمخض عنه من نشأة حوار أدبي وفكري⁽⁸⁾. وإن ابتعد في صورته عن أخلاقيات النقد الموضوعي، هذا الحوار الذي نادى بالابتعاد عن قيم النقد القديم، ووجوب خلق فلسفة نقدية وجمالية خاصة بعصرنا وحاضرنا: "على أنا لا نغفل هنا الإشارة إلى أن هؤلاء المجددين الذين خاضوا معركة التجديد، لم يؤثر واحد منهم في الآخر في ميدان التجديد، لأن كل منهم كان يمتاح من النقد الأدبي الأوربي في اللغة الأوربية التي يجيدها أو مترجماً إليها، وذلك لكي يحطم تلكم القيم الصدئة البالية في أدبنا العربي ونقده، أو يعمل على إضعافها في نفوس الناس الذين يدينون لها، وليحل محلها قيما شعرية أخرى أستمدتها من مطالعته في الأدب الغربي ونقده".⁽⁹⁾ وهذه الحركات التجديدية، رغم ما أضافته إلى النقد واستفادتها من مناهج النقد الأوربي، لم تحاول استخلاص قيم نقدية وجمالية خاصة بها، تتسم بأصالة مقاييسها وتفرّد رؤاها وتميّز موقفها، فهي حتى وإن حاولت تبني مناهج ومقاييس بها، وتوظيفها لمعالجة قضايا التراث غير أنها ظلت أسيرة دائرة شكلية بقيت تطفو فوق سطحه دون الولوج إلى عمقه واكتشاف معالمه والوقوف على حيثيات خصائصه ومميّزاته، انطلاقاً من نظرة المعاداة للتراث ووسمه بالتقليد والجمود والتجبر، "إذ سأمنا القديم ونبذناه فليس لأن نعد كل قديم باليا فاسداً"⁽¹⁰⁾. أو كالقول بأن التراث: "... رافقته ظروف ثابتة جعلت من التطور الجذري أمراً مستحيلاً"⁽¹¹⁾. ذلك أن موقف المعاداة كان يحكم رؤية المعالجة والتقييم والتعامل في حين كان ينبغي أن يكون الموقف خاضعاً لهذه الرؤية: "...لأن الانتصار التراث الأدبي في ضوء التصورات المبادئ العصرية مازال يوحى بصلاحيّة الشعر لأن يكون نموذجاً أعلى يحق للشاعر المعاصر أن ينسج على منواله، دون خشية من يتهم بالتخلف عن روح العصر الذي نعيش فيه"⁽¹²⁾. ولا نريد أن نقلل من علمية المنهج المتبع، ولكننا نشير إلى افتقاده النظرة الذي تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كل تجربة وظروف نشأتها، بحيث تكون الدعوة الموجهة إلى إقامة علاقة واعية ونافذة لجوهر التراث لا تعني استخدام حقائقه بما مثّله رموزه وشخصه وإحداثه استخداماً زخرفياً، وإنما رصد جملة المواقف الحضارية بأبعادها الإنسانية، رصداً يستند إلى البحث والكشف عن المعالم التي تشكّل القواسم المشتركة بيننا وبين من سبقونا، عبرشمولية تجاربه الشعرية ورؤاه الجمالية والفنية والإبداعية: "إن مضامين القصيدة الجاهلية قد عبرت عن خصوصية

تجربة الشاعر في علاقته القبلية، وفي مشاغله ونوازعه الذاتية، وطريقة معرفته للحياة وللطبيعة بكل صدق وعفوية⁽¹³⁾. في الوقت الذي عبرت فيه هذه المضامين عن رؤيته للوجود وصاغت موقفه من كل ما يحيط به، عبر تجاربه الإبداعية: "وكأننا حين نطالع هذا الشعر - رغم ما قد تتضمنه بعض قصائده من موضوعات أو مواقف عصرية - إنما قد عدنا لنعيش في العصر العباسي لكي نستأنف حركتنا التاريخية من هناك. فهذه الحركة إذا - شأن حركة النهضة الأوروبية إلى حد بعيد- تحلّ نوعاً من الردة إلى الماضي للامتداد منه إلى الحاضر. إنها- بعبارة أخرى- تمثل امتداد الماضي في الحاضر، وتحقق نوعاً من الاتصال بينهما"⁽¹⁴⁾. ورغم ما تضمنته هذه الرؤية لتراث من التحرر في الموقف والتعامل، والزعم أن التراث يقف حجر عثرة في طريق تطورنا ويتقل كاهلنا، ومحاولة إفراغه من شحناته، وطرح البديل مثلاً بنماذج فنية وافدة⁽¹⁵⁾ لا نريد أن نقلل ما لإضافات هذه التجربة من الأهمية على مستوى الرؤية والتعبير الشعري ولا سيما فيما يتعلّق بالمضمون الشعري، ولا نريد أن ننكر كذلك ما لهذه الإضافات من ارتباط وثيق بمضامين التراث الشعري وإفادتها منه بما يخدم نظريتها إلى التجديد، وتعاملها مع قضايا العصر وإنعكاستها على الرغم مما قدّم لحدّ الآن من تبريرات لازالت بعض ما شاب نظرة هذه التجربة إلى التراث والتعامل معه، والأساس الذي عليه تمت معالجة قضايا التراث والتي اتخذت من مغايرتها لمضمون وشكل التجربة القديمة حجة لتبرير موقفها⁽¹⁶⁾ فالمغايرة لا تعني أنها جوهر الموقف، ولا مضمون النظرة التي تستند إليها التجربة الجديدة، ويخيّل إلينا أنه على مستوى الكيفية التي تم بها تقديم التراث والتعامل معه، والأساس الذي عليه تمت معالجة قضايا التراث: "إن تأسيس رؤية إبداعية ومعرفية مستمدة من التراث العربي لا يعني التقليد من أهمية الموروث الإنساني والثقافة المعاصرة. بل هي امتداد لهما، وتأسيس بضوءهما أيضاً. كما لا يعني التقليد من أهمية الموهبة الفردية إن لم تكن هي إخصاب لها وتحفيز وضمان للنبع الإبداعي من أن ينبض دون أن نضع الموهبة هذه تحت الرحمة"⁽¹⁷⁾. قد تكون هذه الرؤية التأسيسية الإبداعية نظرة توفيقية تحاول الأخذ من التراث كما تأخذ من مقتضيات العصر وأثاره، لكنها لا تخلو من بروز إشكالية حضارية أساسها: ما حدود التماس ما هو تراثي وما هو عصري وكيف تكون؟. فعلى مستوى مضمون التجربة الوجداني تداخلت نزعات الشعر،

وجدانية وتأملية وصفية، إذ نجد القصيدة الحديثة يتجاذبها عالمان متباينان: "... فهناك ملامح تتحدر من أصول صوفية أو طقوسية أو مرتبطة بعبادات الأسرار..."⁽¹⁸⁾. ولا شك أن في هذه الملامح ذات أبعاد روحية، قابلتها في العالم المقابل ملامح ذات صبغة معاصرة مطبوعة بنزعة اجتماعية واقعية، وعلى مستوى الشكل نجد تداخلا بين التعبير الكلاسيكي والوجداني والرمزي في صورة مركبة يغلب عليها إيهام والغموض وعدم وضوح خطوط الصورة الشعرية⁽¹⁹⁾. بحيث خلق هذا التداخل على مستوى المضمون والشكل توتراً نبعا من صميم علاقة عناصر العمل الفني، ويخيل إلينا أن تطور الشكل والمضمون استوجب تطوراً في هذه العلاقة التي تعكس مدى التجديد على مستوى الرؤية والتجربة. ومن ثم تطور الشعر والتجديد رسالته: "... بيد أن تطوره لا يمكن فصله عن وجدان صاحبه المرتبط الارتباط كله بوجدان العصر."⁽²⁰⁾. لأن تطور التجربة الشعرية مرهون بتطور رؤية الشاعر ووجدانه تجاه الكون والوجود التي ترتبط بتطور العصر الذي يحي واقع وأحداثه: "ما دوما نعيش في عصر يختلف عن العصور السابقة في كثير من النواحي التفكير والحياة العامة فلا بد أن يكون آدابنا، ولا سيما الشعر صورة صادقة لما نفكر فيه ونحسه ولا يكون هذا الشعر صورة صادقة إلا إذا استطع أن يوفق بين الشكل والمضمون توفقاً تاماً..."⁽²¹⁾.

الإحالات:

1. ينظر: محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف بمصر، ص389، عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي والمعاصر، ص04.
2. شكري محمد عياد، الأدب في عالم متغير، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة 1971، ص16.
3. ينظر: علي أحمد سعيد، (أدونيس)، الأدب العربي المعاصر، أعمال مؤتمر روما المنعقد بتاريخ تشرين أول 1961، ص181.
4. عناد غزوان إسماعيل، الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر، محاضرة مهرجان المربد الثالث، البصرة 1984، ص06.
5. ضياء عزوي، قراءة التراث قراءة معاصرة، مقالة في مجلة المعرفة، عدد 161، دمشق تموز 1975، ص33.
6. ينظر: علي عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، منشورات وزارة الثقافة والفنون دار المعارف بمصر، دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر، طبعة أولى، إسكندرية 1966، ص409-410.
7. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها، وظواهره الفنية والمعنوية: دار العودة ودار الثقافة، طبعة ثالثة، بيروت 1981، ص23.
8. ينظر: نفس المرجع، حيث يشير إلى أن ظهور قضية العلاقة مع التراث كان حافزا مثيرا لها ص20.
9. عبد الحي دياب، التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد، دار الكتاب العربي، القاهرة 1968، ص70.
10. عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر، ص70.
11. غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين، دار الأفاق الجديدة، الطبعة الثانية، 1978، ص113.
12. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ص27.
13. محمد يوسف داود، لغة الشعر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق 1980، ص59.
14. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص23.
15. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف بمصر، القاهرة 1970، ص188.
16. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص19.
17. طراد الكبيسي، التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع في الشعر العربي، منشورات وزارة الثقافة والفنون دار الحرية للطباعة بغداد، 1978، ص87.
18. عبد الغفار المكاوي، ثورة الشعر الحديث من بولدوير إلى العصر الحديث، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1972، ص31-32.
19. ينظر: شوقي ضيف فصول في شعر ونقده، دار المعارف مصر القاهرة، 1971، ص323.
20. عناد غزوان إسماعيل، الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر، ص06-07.
21. إبراهيم محمد الوائلي، التجديد في الأدب معناه وتطوره، مقالة منشورة في مجلة كلية الآداب، جامعوبغداد العدد 24، ص23-24.

دراسات إجتماعية وإنسانية

